

محاضرة الجيش البيزنطي والتنظيمات العسكرية

كان أعداء الإمبراطورية البيزنطية يحيطون بها من كل جانب ، فقد كانت الإمبراطورية تشعر دائماً انها معرضة لالاخطار أو الغزوات أو لقيام ثورة داخلية ربما تهدد العاصمة نفسها . لذلك أصبح بقاء الإمبراطورية في موقف آمن يتطلب وجود جيش وأسطول قوي ؛ حتي تستطيع القيام بواجبات الدفاع الملقاة علي عاتقها .

ولذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية ظلت طوال العصور الوسطي تحافظ على تدوين فنون الحرب والقتال وتناول أدوات الجيش وتنظيمه بكل عناية واهتمام لذلك قدمت الإمبراطورية سلسلة متصلة من الكتاب العسكريين الكبار ، حتي ان معظم مؤرخيها كانوا يهتمون بجانب في الشؤون العسكرية سواء اكانت برية ام بحرية ، ومن هؤلاء الكتاب والمؤرخين نستطيع أن نتتبع تاريخ العسكرية البيزنطية .

أشهر الكتاب العسكريين في الدولة البيزنطية

١. المؤرخ أوربيكيوس الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الميلادي وبالتحديد في عهد الإمبراطور انستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨ م) .

٢. المؤرخ بروكوبيوس القيصري - مؤرخ عصر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وكتب في الحروب الفارسية والحروب القوطية ، والحروب مع الوندال ؛ فبذلك يكون مؤرخاً عسكرياً في كتبه الكثير من الخطط والعمليات العسكرية.
٣. الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢ م) وله كتاب في فن الحرب والقتال جاء تحت عنوان "الخطط العسكرية" وهو دراسة لأحوال جيش الإمبراطورية في عصره .
٤. الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) قام بوضع كتاب في الشؤون العسكرية بعنوان "فنون الحرب والقتال" ، وقد وضع فيه كل ما يتعلق بشؤون الحرب والقتال.
٥. المؤرخة البيزنطية انا كومنين (ت. ١١٥٠ م) أرخت لوالدها الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٨٠٨ - ١١١٨ م) وقدمت جانباً كبيراً من أعمال والدها العسكرية علي الجبهة الغربية والشرقية والشمالية وكذلك مع الصليبيين ، ويستدل من كتاباتها انها فهمت جانباً طيباً عن الشؤون العسكرية ومن كل هذه المؤلفات تكونت خبرات طويلة في الشؤون العسكرية لرجال الإمبراطورية البيزنطية .

الجيش البيزنطي

كانت السنوات الأخيرة من القرن الثالث الميلادي حافلة بالاحداث التي كشفت عن سوء أحوال الجيش بسبب طموح قادته ، فكان الحرس الإمبراطوري ينصب الأباطرة ويخلعهم عن عروشهم ، يضاف إلى ذلك ان قادة المقاطعات كانوا يسيطرون علي قوات كبيرة ويتمردون دون ردع . وقد حاول كل من الإمبراطور دقلديانوس ومن بعده الإمبراطور

قسطنطين ادخال بعض الاصلاحات التي تؤدي إلى استقرار الاحوال داخل القوات المسلحة ، فأقام جيوشاً من الجند الوريثيين ممن يمررون الجنديّة لأولادهم من بعدهم ، ويأخذون أجورهم عن طريق منح الاراضي التي يعيشون عليها ، واعتبرت هذه القوات قوات الحدود ، ثم اقاما جيشاً في العاصمة سريع الحركة يمكن دفعه إلى اي مكان في الإمبراطورية بصورة عاجلة ، وكان يتولي أمر هذه القوات الإمبراطور بنفسه .

ولعل ما اظهر عدم قدرة قوات المشاه العسكرية علي ملاقاتة فرسان القوط ، ما حدث في معركة أدريّة عام ٣٧٨م عندما هزمت قوات الإمبراطورية وقتل الإمبراطور فالنز (٣٦٤ - ٣٧٨م) وهنا ظهرت الحاجة إلى إعداد جيش يقوم علي قوة الفرسان أكثر ما يقوم علي قوة المشاه . وعندما تولى الإمبراطور ثيودوسيوس الاول (٣٧٩ - ٣٩٥م) عرش الإمبراطورية خلفاً للإمبراطورية فالنز أدرك أهمية الفرسان للقوات المسلحة البيزنطية . فلجأ الإمبراطور ثيودوسيوس إلى إدخال نظام عرف باسم جند المحالفين وهذا النظام يقضي باستخدام فرسان من القبائل الجرمانية للعمل داخل صفوف قوات الإمبراطورية نظير مبالغ مالية . والحقيقة ان مثل هذا النظام خطير للغاية لان اعتماد الإمبراطورية علي قوات اجنبية - كمرتزقة - انما يوضح عجز المواطن البيزنطي عن الدفاع عن أرضه ونفسه ، ولعل ما دفع الإمبراطور البيزنطي إلى هذا الاختيار عامل الوقت والرغبة في سرعة تشكيل قوة الفرسان .

وقد قدم هؤلاء القادة خدمات عسكرية جليّة للإمبراطورية وحملوا ألقاباً عسكرية كبيرة في الجيش البيزنطي ، ومع مرور الزمن تضخم أمر هؤلاء القادة ولم تعد

الإمبراطورية تستطيع معارضتهم ومن هؤلاء القائد ريكيمر الجرمانى الاصل الذى كانت له الكلمة العليا فى غرب أوروبا فى عهد الإمبراطور الغربى هونوريوس (٣٩٥-٤٢٣م) وأودواكر ملك قبائل الهيرول الذى سيطر على إيطاليا ودخل روما عام ٤٧٦م واسقط الإمبراطورية الرومانية فى غرب أوروبا ولكن الإمبراطورية البيزنطية نجحت فى إيقاف مثل هؤلاء القادة عند حدهم فى مرحلة تالية ، وعندما نجح الأباطرة البيزنطيون فى تجنيد العناصر الارمينية والأيسورية من أسيا الصغرى فعادلت بهم كفة الميزان ، لتوقف خطر مثل هؤلاء القادة وما تحت ايديهم من قوات .

ورغم تخلص الإمبراطورية من نفوذ جند المحالفين الا ان فكرة تنظيم هذه القوات قد ورثته الإمبراطورية البيزنطية ، وعندما لجأت الإمبراطورية إلى تشكيل ما يعادل القوات المتحالفة ، تم تشكيل فرق فى الجيش تسمى باسم قائدها وأطلق عليهم جميعاً اسم مرتزقة أو الجاريات وعرفوا أيضاً باسم البوكلارية ، ومن مشاكل هذه القوات ان الإمبراطور جستنيان لم يهتم كثيراً بالسيطرة عليهم ، وكثيراً ما تمردت قوات البوكلارية ، ولكنه كان يتجاوز عنهم لما سجلوه من انتصارات عسكرية فى غرب أوروبا على القوط وفى شمال أفريقيا على الوندال . ولما كانت حروب جستنيان قد كلفت خزانة الإمبراطورية الكثير ، فانه خلفائه من بعده اضطروا إلى إنقاص عدد من الجنود المحالفين بعد ان ترك خلفاء جستنيان الجانب الأوروبى من الإمبراطورية خلف ظهورهم وتوجهوا إلى الجانب الشرقى ، فاختفى نظام قوات البوكلارية ، ولكن هذا الاسم ظل باقياً لوصف بعض الفرق فى الجيش البيزنطى .

تكوين الجيش البيزنطي

ومن المصادر البيزنطية يمكن وضع تصور لنظام تكوين الجيش البيزنطي وأهمها :

١- السرية ، وهي تتكون من حوالي ثلاثمائة إلى اربعمائة من الجنود يتولي قيادتهم

رائد أو تربيون وكانت كل سرية تنقسم إلى فصائل .

٢- الكتيبة ، وهي تتكون من حوالي ست إلى ثمان سرايا وكان يتولي قيادتها قائد

كتيبة أو دوق .

وكان تجمع هذه الكتائب من اختصاص القائد العام إذا وقعت طبول الحرب ، ولم يكن

داخل القوات العسكرية البيزنطية الا بعض الجند المحالفين وفرق البوكلاري ، وبعض

الجنود المختارين ، وهم بقايا الجند المرتزقة الاجانب الذي شكلوا جانباً من الحرس

الإمبراطوري .

وأضاف الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م) بعض القوات المحلية للدفاع عن

الارض التي يسكنوها في الاقاليم التي ليس بها قوات ثابتة للدفاع عن انفسهم وقت

اللزوم وقد طلب الإمبراطور من كل مواطن حر المولد ان يتعلم الرماية وان يكون لديه

رحماً وقوساً وكثيراً ما كان هؤلاء يستدعون لينضموا إلى جانب القوات المرابطة في

الشغور ليقوموا بواجب الدفاع عن الاقليم ، والحقيقة ان هذا الجيش الذي أعاد تنظيمه

الإمبراطور موريس هو الذي قاده الإمبراطور هرقل ضد القوات الفارسية واحرز به

النصر في نهاية الأمر ، ولكن هذا الجيش لم يصمد أمام القوات الإسلامية كما ادت

هزيمة هرقل إلى حرمان الإمبراطورية من مصر والشام وشمال أفريقيا .

نشأة نظام الثيمات أو ألوية الثغور البيزنطية

ظلت قوات الإمبراطورية في حالة من الاضطراب والفوضى حتي اعداد تنظيمها ليو الايسوري بانشاء ألوية الثغور المعروفة باسم الثيمات . وترجع فكرة انشاء ألوية الثغور إلى وجود تجمعات ثابتة من الجنود في اقاليم محددة ويتولي أمر هذه القوات قائد باسم الاقليم ثم تولي هذا القائد رئاسة الحكومة المدنية في هذا الاقليم ، وفي بداية الأمر كان الاقليم يسمى باسم الفرقة التي تتولي الدفاع عنه ، فيقال لواء المختارين أو لواء المرتزقة ، وبعد ان هدأت الحدود إلى حد ما اضيفت ألوية جديدة اشتملت علي الاراضي التي استعادتها الإمبراطورية وأطلق عليها اسماً جغرافياً فيقال لواء الخرسون أو لواء كبادوكيا وكان من اهم هذه الالوية هو لواء الممرات مثل ممرات قيليقية بين الشام وأسيا الصغري ويسمي قائدها قائد لواء الثغور وكانت الجنود البيزنطية ترابط في لواء الثغر بصفة دائمة . وكان لواء الاناضول اهم هذه الالوية علي الاطلاق ويعتبر قائده هو القائد العام لقوات أسيا الصغري بأكملها وظل كذلك حتي القرن التاسع الميلادي .

وفي القرن التاسع دخل علي جيش الإمبراطورية نوعاً جديداً من الجيش هو التاجماتا وهي الفرق الأربع للحرس الإمبراطوري ، وكان هذا الجيش بأكمله يتكون من الفرسان ولهم قدرة عسكرية عالية وكانت هذه القوات تعسكر بالقرب من العاصمة البيزنطية وكانت هذه القوات ترافق الإمبراطور إذا خرج للحرب ، وإذا لم يخرج الإمبراطور لقيادتها تولي أمرها ضابط القصر وهو برتبة دومستق ومن الطبيعي ان تقسم هذه الجيوش إلى كتائب ثم إلى سرايا واخير إلى فصائل.

ومن النادر ان تقوم القوات العسكرية البيزنطية بالهجوم داخل اراضي العدو وفي هذه الحالة يكون هناك استعداد مسبق ومعد إعداداً جيداً . ثم يتولي الإمبراطور أو الدمشقي قيادة قوات الحرس الوطني التي لم يتعد جنودها ستة الاف مقاتل ، وفي الطريق العسكري الذي كان يخترق أسيا الصغري يلحق به في نقاط محددة فصائل من جند الالوية المختلفة ومعظمها كان من المشاه مع بعض الفرسان . وليس في المصادر البيزنطية الا القليل من المعلومات بعد ذلك حتي الفترة إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي أيام الإمبراطورين نقفور فوكاس ٩٦٣ - ٩٦٩ ويوحنا الاول نزيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م) حيث قاد الاخير حملات علي اعالي الشام وفلسطين وان الخطط العسكرية ليست واضحة في المصادر البيزنطية وكل ما ذكرته بصفة اساسية هو حصار المدن التي هاجمها يوحنا نزيمسكيس .

والحقيقة ان الحذر كان اساساً في الخطط الحربية البيزنطية وكان دفع الجزية انسب كثيراً للإمبراطورية البيزنطية وكانت تطلق عليها الاستثمار الحكيم لرأس المال ، بمعنى ان تكلفة الحرب أكثر بكثير من دفع بعض الأموال للأعداء ورغم هذا كله كانت غزوات البرابرة الجرمان في غرب أوروبا أو المسلمين في الشرق كانت كثيرة ومفاجئة بحيث لم يجد معها في معظم الاوقات اي استعداد مهما كان الحذر ويلاحظ ان الجيش الإسلامي وجيش البرابرة كان خفيف الحركة وكثير العدد ، علي العكس من القوات البيزنطية كثيرة النفقة ، ومن هنا كان الجميع يحذر من التسرع والتهور وتفادي الكمائن

والهجمات المضادة وعلي القادة البيزنطيين استخدام الطلائع لتكون بمثابة كشافة لهم لتقديم المعلومات من العدو .

أهم نقاط الضعف في الجيش البيزنطي

١-الدارس للتاريخ العسكري البيزنطي يلاحظ ان قدرة الجيش البيزنطي علي الإمدادات والتموين كانت سيئة ، كما ان الجوع الذي واجه الجنود جعلهم كثيراً ما يتخلون عن مواقعهم لدرجة ربما تصل إلى حد الخيانة ، ولما كان هناك جانب من الفساد داخل القوات المسلحة فقد كان بعض الجنود يخرجون علي طاعة قائدهم وينضمون إلى قائد آخر في حالة الثورة علي الإمبراطور .

٢-كان الجندى البيزنطي ثقيل الحركة ، ومثال على ذلك يظهر في الحرب مع الصقالبة (السلاف) حيث كان جيشهم يتكون من جند المشاة خفيفي الحركة خاصة في التلال الوعرة دون غيرها ، ولذلك كانوا يفضلون ان يسحبوا القوات البيزنطية إليها ،علي العكس من الأماكن المنبسطة حيث لا يستطيعون مواجهة القوات البيزنطية . أما المسلمون فقد ظلوا في مواجهة مباشرة مع الإمبراطورية منذ ايام عصر الخلفاء ثم مع الدولة الاموية ويليها العباسية أو مع جانب من الإمارات الإسلامية مثل الحمدانية ومن بعدهم سلاجقة الروم خاصة في آسيا الصغرى واخيراً الدولة العثمانية ومن الملاحظ ان المسلمين لم يكن بوسعهم في أغلب الأحوال حشد قوات كثيرة علي مر الحروب ولكنهم كانوا يتحركون بسرعة .

٣- كان لدي البيزنطيين قدراً مناسباً في فن الحصار في الارض المشكوفة وهو أمر يختلف عن فن حصار المدن ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية تطور عملياتها العسكرية لتناسب كل موقف ولعل خبرتها في حروبها مع عناصر مختلفة في الشرق والغرب والشمال جعلها في موقع افضل لمواجهة الأعداء .

٤- ومن اهم نقاط الضعف في الجيش الإمبراطوري الحاجة الدائمة للاقتصاد في النفقات خاصة في فصل الشتاء مما يترك الإمبراطورية عارية من قواتها المسلحة ويسهل اختارتها في هذا الوقت بالذات .

وفيما يتعلق بتكوين الجيش البيزنطي في القرن الحادي عشر فكان يتكون من الخيالة الثقيلة وكانت هذه القوات تلبس ببيضة من الصلب (خوذه) ودروعاً من سلاسل متداخلة مع بعضها بحيث تشكل شبكة مرنة وكان الضباط والجنود يضعون علامات من الصلب توضح رتبهم واللواء الذي ينتمون إليه وكانوا يستخدمون عباءات من التيل أو الصوف تبعاً لحرارة الجو . أما السلاح الذي استخدمته هذه الخيالة فكان السيف والخنجر والرماح والنبال . وبالنسبة إلى جنود المشاة فكانوا من حملة النبال في بعض الالوية والآخرى كانت تستعمل الرماح وكان هناك أيضاً مشاة من لابس الدروع ويحملون الاطبار اي البلط والرماح والسيوف والتروس والاخيرة هي دروع يحملها الجندي علي يده السري ليصد بها سلاح العدو ، وهؤلاء المشاة كانوا يتواجدون في الممرات الجبلية الوعرة التي لا تصلح للفرسان . وفيما يتعلق بمرتبات الجنود تختلف من

رتبة إلى أخرى فقد كان قواد ألوية الثغور يتقاضونها من الذهب ، وكانت من النصائح التي تقدم للباطرة هو عدم قطع هذه الرواتب علي مدار العام .

ويري البعض ان عدد الجيش البيزنطي لم يكن يزيد عن مائة وعشرين الف مقاتل منها حوالى سبعين الفا من ألوية الثغور الشرقية والباقي من الالوية الغربية والجيش المركزي ، ويضاف إلى هؤلاء ما يعرف بجنود الخدمة أو المتعقبة وهم الذين يرافقون الجيش فقد كان من الممكن اصطحاب الخدم أو المتعقبة وهم الذين يرافقون الجيش ، فقد كان من الممكن اصطحاب الخدم والعبيد حتي يقوموا بأعمال نصب الخيام وحفر الخنادق ، يضاف إلى هؤلاء من يقومون باعداد الإمدادات والتموين وهيئة المهندسين والهيئة الطبية والاسعافات الأولية وعمال إقامة الحمامات وكل هذا ما كان يميز الجيش البيزنطي عن غيره من الجيوش المعاصرة .

ورغم هذه التنظيمات والتعليمات الدقيقة فقد كان الخروج عليها يسبب كارثة للجيش البيزنطي كله أو جانب منه ، ومن ذلك ما حدث في معركة ملاذكرد أو مانزكرت التي وقعت أحداثها في عام ١٠٧١م بين الجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس (١٠٦٨ - ١٠٧١م) ضد القوات السلجوقية بقيادة السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) ففي هذه المعركة تغاضي الإمبراطور البيزنطي عن كل القوانين العسكرية فلقى هزيمة ضخمة لم يسترد بعدها الجيش عافيته وتسببت هذه الهزيمة في عزل الإمبراطور وسمل عينيه كما ترتب عليها وقوع جانب كبير من أسيا الصغرى تحت سيطرة سلاجقة الروم .

وواقع الحال ان الإمبراطورية قد أصبحت تعتمد علي الجنود المرتزقة وهذا يتطلب وجود مبالغ كبيرة في خزانة الدولة ولكن هذا المال بدأ يقل بصورة كبيرة في الربع الاخير في القرن الثاني عشر ، وعندما هاجم الصليبيون الإمبراطورية في عام ١٢٠٤م لم تتمكن الإمبراطورية من دفع رواتب الجنود المرتزقة فلم يدافعوا عن العاصمة فسقطت في يد الدوج هنري داندلو قائد الحملة .

ومع قيام الإمبراطورية البيزنطية في المنفي واتخاذ مدينة نيقية علي الجانب الأسيوي عاصمة لهم لم يعد بوسع الأباطرة تدبير المال اللازم لجيش كبير فأعتمدوا علي جيش صغير وعلي وجود بعض قوات الحرس الوطني علي الحدود ومنحهم بعض قطع الاراضي الزراعية الصغيرة للعيش عليها . وبعد عودة الإمبراطورية البيزنطية من المنفي في عام ١٢٦١م ، كانت مشكلة تشكيل جيش قوي من المشاكل الرئيسية التي واجهت أباطرة أسرة آل باليولوجس ، فقد كانت هناك مشاكل داخلية ومشاكل خارجية من جنوه والبندقية ، والصرب والأتراك العثمانيين ، وراي الإمبراطور اندرونيقوس الثاني (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) أن يستعين بالمرتزقة . وبدأ اضمحلال الجيش البيزنطي حتي إذا كان عام ١٤٥٣ لم تجد الإمبراطورية من يدافع عنها الا القليل ، فسقطت في يد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م .